

الأستاذ محمد مزين ، المغرب

(المصادر والوثائق المغربية المتعلقة بالجزائر في العهد العثماني الأول والقرنان 16 و 17م)

من الفضائيات التي تشغّل بالتفكيرين العرب اليوم قضية إعادة كتابة التاريخ العربي وفهمه فيها قوميا بعيدا عن كل تأويلات استعمارية أو أدبيولوجية... ومن الشروط الأساسية الأولى التي تفرض نفسها على الباحث، اذا أراد التفكير في مثل هذا العمل، توفره على الوثائق والمصادر اللازمة أولا، وقراءته لتلك المصادر قراءة جديدة نقدية ثانيا، واعتماده منها علميا وحيثما يأخذ بعين الاعتبار النتائج التي توصلت اليها اليوم العلوم المساعدة للتاريخ ثالثا.

وإذا كان المطلب الأول هو الذي سيشغلنا في هذا العرض المتواضع ، فهنا لا يعني أن المطلوبين الآخرين قد ثبتت معالجتها ، وأثنا في غنى عن في البحث فيها يطرحانه من مشاكل ، لا بالنسبة ل بتاريخ الجزائر العثمانية وحدها بل بالنسبة ل تاريخ كل دولة من الدول العربية ...

وما يبرز الحديث عن الوثائق والمصادر المغربية المتعلقة بالتاريخ الجزائري في العهد العثماني الأول ، ما كان بين البلدين من علاقات سياسية واقتصادية وفكرية ، ليس في تلك الفترة فحسب بل قبلها وبعدها كذلك ... إلى اليوم .

مشاكل اجتماعية (دخول عدد من القبائل المستقرة في مرحلة جديدة من التنقل والترحال، تراجع التمدن...) الشيء الذي لم يمنع بلدان المغرب هذه من البحث عن مقاومة تلك المجمة.

فكثرت النداءات إلى الجهاد وتعدد المشايخ وانتشرت الزوايا والأضرحة يدعوا أربابها إلى التثبت بالاسلام القويم وبالبلاد الحرة...

- ثانياً : استمرت هذه الظروف إلى حين ظهور قوتين في كل من المغربين الأوسط والأقصى : تمثلت القوة الأولى في الآخرين عروم وخير الدين في المغرب الأوسط. وقد حمل راية الجهاد ضد الإسبان المسيحيين، وكلنا نعرف الأحداث التي ترويها كتب التاريخ عن تلك المرحلة من تاريخ الجزائر.

وتناثلت القوة الثانية في أسرة الأشراف السعديين في المغرب الأقصى، ويكفي الرجوع إلى كتب المؤرخات المعاصرة للوقوف على تاريخ حكمها في المغرب، وتاريخ قيادتها للجهاد في أقصى غرب العالم العربي الإسلامي... .

ثالثاً : ومن جانب آخر لقد أفرزت كل هذه الظروف حركة فكرية عارمة في كل بلدان الشمال الافريقي تمثلت في ظهور وانتشار حركة الزوايا والمشايخ والمتصوفة، تلك التي تولد عنها انتاج فكري مكتوب، قلما عرقته بلدان المغرب قبل وبعد تلك الفترة... . لقد تعددت الكتابات وتنوعت فالجانب الاتناك الكلاسيكي المرتبط بالعلم والعلماء فقد تطور إنتاج من نوع آخر وتشعبت مجالاته، فتعددت المراسلات والرحلات وتنوعت واجتهد رجال السياسة في إنجاز أعمال بقى إلى اليوم محظ اهتمام، ليس فقط المؤرخين بل كذلك رجال الأدب والفكر... .

فبدون دراسة كل هذا الانتاج الفكري والسياسي لا يمكن فهم تاريخ بلداناً، ومن هنا تتبّع أهمية استعراض الامكانيات التي توفرها تلك المصادر للباحث في تاريخ بلدان المغرب، وبالتالي تحديد بلاد المغرب الأوسط الجزائر.

فتاريخ بلدان الشمال الافريقي ارتبط بظروف مشابهة ومتقاربة منذ العهود القديمة، من عصر الرومان إلى عصر الاسلام وإلى اليوم. فكل حديث عن بلد من بلدانه إلا وكان الحديث غير مباشر عن البلد الآخر، فتعاقب الدول على حكم جهة من جهاته كان دائمًا يؤدي إلى اشتراك الجهة الأخرى المجاورة بشكل أو بآخر... مما كان يتبع عنه مراسلات ومشاورات في السياسة أو في الفكر أو في غيرها من الميدانين.

وقد يبين البحث والتحري في مكتبات ودوروثائق كل بلد من بلدان الشمال الافريقي (أو المغاربي) ضخامة وكثرة الانتاج الذي أفرزته هذه العلاقات وتلك المشاورات بين رجال السياسة وبين رجال الفكر من وثائق وكتابات... . وذلك ماسيكون موضوع حديثنا في هذا البحث.

إن الحديث عن الوثائق والكتابات التي أفرزتها العلاقات المغربية الجزائرية خلال القرنين السادس والسابع عشر الميلاديين بفترة الالام - على الأقل - بالخطوط العريضة للظروف العامة (السياسية والاجتماعية بالخصوص) التي كان البلدان يعيشانها خلال تلك الفترة.

ويمكن تلخيص ما ذكره كلب التاريخ حول هذه الفترة فيما يلي :

- أولاً عرف المغرب والجزائر مع بداية القرن السادس عشر (منذ 1415 بالنسبة للمغرب) هجنة مسيحية قادتها دولتنا إسبانيا والبرتغال وتم خلالها احتلال عدد من الشعوب على سواحل البلدين، حيث احتل البرتغال مواقع المغرب الأطلسية، كما احتل الإسبان أغليبة مواقع المغرب الأوسط... . وليس هذا مجال استعراض في تلك الأحداث ولا أسبابها ولأمراضها، فتلك قضية أخرى... . ولكننا نؤكد هنا على أن هذه الحملة الشرسة وجدت أمامها بلداناً تختلط في مشاكل سياسية (ضعف السلطات المركزية) وفي مشاكل اقتصادية (آزمات انتاجية، مجاعات وأوبئة) وفي

إلا بعض تلك المراسلات، حيث نجد قسماً منها داخل نصوص فقهية أو أدبية أو مصنفة في جمومعات لاعلاقة لها بتلك الوثائق... بينما يوجد القسم الأكبر من تلك الوثائق خارج المغرب في خزانات الدول التي كانت لها علاقات مع المغرب... ومن أهم المجموعات الوثائقية التي يرجع تاريخها إلى القرنين 16 و 17 تم تلك المجموعة التي تحمل عنوان «رسائل سعدية» والتي تتحدث كل الرسائل المدرجة ضمنها عن علاقات المغرب بالجزائر وبالقيادة العثمانية.

وتشمل هذه المجموعة الموجودة بالخزانة العامة بالرباط (تحت رقم 278) أهم المراسلات التي تمت بين السلطان المنصور الذهبي (1578 - 1603) والسلطات العثمانية بالجزائر وبالقسطنطينية خلال النصف الثاني من القرن السادس عشر. وقد تم نشر قسم منها على يد الأستاذ عبد الله قنون في كتاب بنفس العنوان ولايزال قسم كبير منها مخطوطاً.

ومن بين الرسائل التي تحتوي عليها هذا المجموع ملحوظ:

- رسالة من الخليفة المنصور إلى السلطان مراد خان (أواخر 989) في موضوع الفتنة الصوفية⁶ الخارجية الرافضة (ص 23 من الكتاب، وفي موضوع الجهاد... ص 24).

- رسالة البشا علوج (ص 68)

- رسالة من المنصور إلى بعض باشات الأتراك (ص 87) في موضوع الفقيه أحد بن عبد الجليل. رسالة عنه إلى بعض باشات الجزائر (الوزير سنان باشا، وهي تعزية على وفاة السلطان مراد خان أوائل عام 1004هـ).

عندما يتبع الباحث بأنة محتوى ما يوجد في دور الوثائق والخزانات المغربية من مصادر ووثائق يلاحظ المكانة البارزة التي تحضى بها بلاد الجزائر في سياق حديث أصحاب تلك الوثائق أو الكتب، بطريقة مباشرة أو غير مباشرة، فإن جل المصادر المغربية التي دونت خلال ذلك العصر تقدم معلومات تفيد في فهم تاريخ المغرب الأوسط، ويمكن تصنيف تلك الوثائق والمصادر في مجموعتين :

المجموعة الأولى خاصة بالوثائق أو المراسلات، والمجموعة الثانية خاصة بالكتب.

1- المجموعة الأولى : الوثائق.

لقد أفرزت أحداث العصر كمية هائلة من الوثائق والمراسلات نتيجة لما اكتساه الشمال الأفريقي من أهمية في الاستراتيجية الدولية، حيث أن انتقال مركز القوة العالمية من البحر المتوسط إلى المحيط الأطلسي جعل كل الإمبراطوريات والمالك والدول تحاول أن تجد لها ملماً في هذه المنطقة. فالاسبان والبرتغال من جهة والعثمانيون من جهة ثانية... كل منهم حاول بطرقه الخاصة أن يسيطر نفوذه على المنطقة. وكل منهم أرسل سفارات وممثلين تجاريين له بل وجواسيس إلى كل من المغرب والجزائر... فتعددت المراسلات والتقارير والزيارات من كل جهة وقد خلف كل ذلك أعداداً من الوثائق والمستندات منها ماهو بالعربية ومنها ماهو باللغات الأخرى : التركية والفرنسية والاسبانية والبرتغالية والإنجليزية... وأغلبها في تاريخ المغرب الأقصى والأوسط على حد سواء. ومن المؤسف أن لانجد إلا القليل من تلك الوثائق في الخزانات المغربية.

1- في الخزانات المغربية :

لانجد في مستودعات الوثائق المغربية (الخزانة العامة والخزانة الحسنية بالرباط وخزانة القرويين بفاس وخزانات طوان وطنجة وتماروت والمصباحية وغيرها)

توجد على التوالي بدور الوثائق الأنسانية بسيماكس (SIMAX) قرب بلاد الوليد () وباشبليا ومادرید، وبالبرتغال بخزانة لشبونة لاطوري (Archives Matinales de France) وفرنسا بالخزانة الوطنية (Archives Matinales de France) دوطومبو (Archives Lisbone) بباريس، وبانجلترا بوزارة الخارجية (M.A.E) ويهولندا... كما أن قسماً لا يستهان به من تلك الوثائق يوجد بخزانات استمبو... .

وقد نستخلص من تبع تلك الوثائق معلومات كثيرة ومتعلقة حول بلاد الجزائر على أساس أن جل المراسلات التي تمت خلال تلك المرحلة تتطرق من ثلاثي سياسي، تمثل اطلاعه في القوات الثلاث: العثمانيون المتواجدون بالجزائر والسعديون بالمغرب والمسيحيون الأوربيون. وكل حديث عن العلاقات المغربية الأوروبية لا يمكن أن يكون كاملاً إلا إذا أخذ بعين الاعتبار الجانب الثالث في ميزان القوى بالمنطقة.

وهكذا جاءت كل الوثائق المغربية المعروفة اليوم، والتي يرجع الفضل في نشرها وتحقيقها إلى دوكاستر وأتباعه (دوسينيال وريكار ودولافيرون...) في مجموعة تحمل عنوان ()، جاءت غنية بالمعلومات حول بلاد المغرب الأوسط. يكفي الرجوع مثلاً إلى المجموعة الأنسانية () المكونة من ثلاثة مجلدات لتجدد رسائل مختلفة تبودلت بين الغالب السعدي والقيادة العثمانية بالجزائر، أو بين الغالب والكونت دي الكوديت () أو إلى المجلدات الثلاثة المتعلقة بالعلاقات المغربية الإنجليزية، أو إلى المجلدات الثلاثة التي تستعرض العلاقات بين المغرب وفرنسا... .

فتشهد ضمن هذه المجلدات المئات من الوثائق التي تتحدث عن تاريخ بلاد الجزائر: عن تلمسان وعن وهران، عن الجزائر وعن بونة وغيرها من المدن التي كانت تلعب أدواراً طلائعية في العلاقات الدولية آنذاك.

- رسالة عنه إلى صاحب الجزائر (ص 142) في موضوع ابن القاضي صاحب كوك وصلة بدبيط الطاغية.. والرغبة في وحدة الهدف.

- رسالة أخرى إلى صاحب الجزائر في موضوع ثورة بب الشيخ (ص 168).

- رسالة عنه إلى بعض باشات الأتراك (إبراهيم باشا) في موضوع إعادة العلاقات... .

- رسالة إلى صاحب الجزائر (سلیمان باشا) (ص 183) جواباً على رسالة في موضوع ثورة الشيخ المامون... .

- رسالة عن المنصور إلى بعض وزراء الأتراك حول موضوع الأخبار التي جاء بها أبو العباس التاجر أحمد الماسي (ص 197).

- رسالة إلى جيش الجزائر في موضوع الوكيل ميمون المسفار الجزائري الذي التجأ إلى المنصور ليتوسط له مع القيادة العثمانية في الجزائر (ص 247)... على أنه تم أخيراً اكتشاف مجموعتين آخرتين من الرسائل السعودية: الأولى بالخزانة الحسنية، والثانية في ملك خاص. ومن المفيد الاشارة إلى أن محتوي عليه هاتان المجموعتين الأخيرتين من رسائل هو غير مایوجد في مخطوط الخزانة العامة (ص 278) ولا في مانشريه الأستاذ عبد الله قنون.

ب - في الخزانات الأوروبية :

إلا أن أغلب الوثائق والمراسلات، التي تمت بين السلطة المغربية آنذاك (السعدية) والدول الأوروبية والاسلامية، توجد خارج البلاد، ذلك أن نصوص التقارير التجارية والسياسية والمعاهدات والاتفاقيات التي أفرزتها تلك العلاقات

ومن جهة أخرى يجب التأكيد على أن مقدمته لنا هذه المجلدات التسعة عشر (19) لا يمثل إلا قسماً ضئيلاً مما تحتوي عليه صناديق الوثائق والمستندات التي لا يزال الغبار يتراءم عليها في دور الوثائق الأجنبية.

١ - المجموعة الثانية : الكتب

إلى جانب تلك الوثائق المتمثلة في التقارير والدراسات السياسية والتجارية، هنا مصادر أخرى مغربية لها أهميتها في فهم تاريخ المغرب الأقصى والأوسط على حد سواء، وهذه المصادر هي كتب الحوليات أولاً وكتب الرحلات ثانياً وكتب الترجمات ثالثاً وكتب الفقه رابعاً.

أ - كتب الحوليات :

إن ماتضنه كتب الحوليات، التي انجزت خلال هذه المرحلة التاريخية (قرن 16 و 17م)، من معلومات سياسية خاصة تتمم وتفسر ما جاء متقطعاً في المراسلات والتقارير حول تاريخ الجزائر أو حول تاريخ العلاقات المغربية الجزائرية: منذ عهد الآخرين عروج وخbir الدين من جهة وأحد لوطاسي من جهة ثانية إلى أواسط القرن السابع عشر أي نهاية الدولة السعودية بالغرب وبداية فترة صعبة بالنسبة للقيادة العثمانية ببلاد الجزائر.

ومن أبرز تلك المصادر ثلاثة كتب:

- الأول « مناهل الصفاقي مأثر مواليها الشرف لأبي فارس » عبد العزيز الشتالي،
- الثاني « تاريخ الدولة السعودية النائمة » مؤرخ مجهول،
- الثالث « نزعة الحادي في أخبار ملوك القرن الحادي » الليفراني.

وإذا كان ماتذكر تلك الكتب عن بلاد الجزائر بالنسبة لما تذكره عن بلاد المغرب فإن هذا لا يمنع الباحث في تاريخ المغرب الأوسط من الاطلاع عليه، والاستفادة مما تذكره عن العثمانيين (عن الجزائر وفي القسطنطينية) على أساس أن المخاطب العثماني المباشر للمغرب آنذاك، كان هو باشا الجزائر.

وقد أورد الغشتالي مثلاً كل المعلومات المتعلقة بما عرفته العلاقات العثمانية المغربية (عبر الباشوية الجزائرية) خلال عهد المنصور الذهبي (1578 - 1603) والظاهر من خلال ماذكره الغشتالي أن المغاربة كانوا يتبعون باستمرار ما يجري عند جيرانهم وأنهم لم يفقدوا الأمل، كما يقول صاحب التفہمة المسکیۃ (النامکروتی)، في أن يروا انتحاق بلاد الجزائر من السلطة العثمانية...

- أما المجهول صاحب تاريخ الدولة السعودية التاكمدية فإنه يؤكد على رهانة العلاقات بين السلطة المغربية والباشوية الجزائرية من جهة، كما يشير إلى مسألة السباق بين الأداريين حول استجلاب الطرق التجارية الآتية من السودان الغربي والتجهيز نحو الشمال الأفريقي.

ويقى أن مواقف هذا المؤرخ المجهول الاسم - في كل ما ذكره - مواقف تعبرها سمات المعارضة والنقاش لكل مكان سعدياً... وتلك قضية أخرى.

- أما الليفراني صاحب الترجمة فقد عاش في عهد المولى اساعيل وتوفي مع بداية القرن الشامن عشر، بمعنى أن لم يعاصر جل الأحداث التي يرويها عن السعديين، لكن الفائدة من مثل هذا الكتاب في فهم تاريخ المنطقة في القرن السادس عشر والسابع عشر للميلاد تمكّن في استقصائه واستيعابه جل أخبار العصر عبر مصادر لم يعثر إلا على القليل منها، حيث أنه لو لا هذا الكتاب لضاعت من تلك المصادر، وجهلنا حتى عنوانها...

ثانيها كتاب النصحة المسكية في أخبار السفارة التركية للنامقروني
ثالثها كتاب «ماء الموائد» أو الرحلة العيشية للعيashi،

ويعتبر أصحاب هذه الرحلات من أشهر ماكتبوا في هذا النوع من الأداب، ومن أحسن من قدم وصفاً مفيداً لكل من أراد الاطلاع على أوضاع بلاد الجزائر على العهد العثماني الأول.

- فالوازن - وكما يعرفه جميع الباحثين - عاش بالأندلس قبل أن يستقر بمدينة فاس... وقد تجول عبر بلاد السودان ومصر وبلدان الشمال الأفريقي، وبالتالي فإن ماذكره عن تلك البلاد غني بمعلومات شاهد عيان، عايش الناس والجيوش والأمراء في بداية القرن السادس عشر. وذكر الكثير عن القرى والمداشر الجزائرية قبل الاحتلال الإسباني والعثماني... فقد أعطى معلومات مفيدة حول المزروعات، فمثلاً ذكر توفر القمح في كل من مستغانم وتنس وقسنطينة وعابة والجزائر، لأن كل هذه المدن - كما يقول الوازن - محطة بأراضي جيدة صالحة لأنماط الحبوب خاصة سهول متيبة (ج 2 ص 37) «التي بنيت بها قمح جيد بكثرة». كما يذكر كثرة استهلاك اللين ومشتقاته في بونة، تلك المدينة التي كانت تستقبل السفن الآتية من تونس وجريدة ومن جنوة والقسطنطينية... (ص 61 - 66).

- أما النامقروني فقد شارك في رحلة رسمية قادته - مع الحوزالي - إلى الديار العثمانية وفي طريقه إلى الباب العالي من عبر بلدان شمال إفريقيا كلها إلى برقة... واصفاً كل المناطق التي زارها، ذكر الأشياء والعلماء الذين التقى بهم أو الذين زار قبورهم وأضرحتهم. يقول «وسمعنا من لقيناه بها من الفقهاء وروينا عنهم وكتب لنا بعضهم بخط يديهم وتركتنا بها...» وقد ذكر مثلاً أنه رأى مدفن أبي زيد عبد الرحمن الشعالي (ص 139) ومدفن أبي العباس أحمد بن عبد الله الجزايري. وقال عن المساجد التي صلى بها مثل مسجد هنين ومرسى القل وبوينة والجزائر (ص 13 - 24 - 55. 139) «كلما عاصرنا بالذكر والتلاوة...»

صاحب النزهة خصص قسماً هاماً من كتابه للعلاقات المغربية - العثمانية، وبالتالي فقد أثار في معرض حديثه عن إالية الجزائر - كما يسميه - إلى إدارتها وإلى علاقتها بباب العالى، كما آثار مسألة العلاقات المغربية مع باشوية الجزائر، وما كان يمكن أن يتبع عن وحدتها من قوة لمواجهة الحملة المسيحية... على أن تتبع ماجاء في كل هذه المصادر يقدم لنا جملة من المعلومات السياسية والدبلوماسية بالخصوص :

- أحداث جمعت بين البلدين

- أحداث عرفها بلاد الجزائر

- معطيات حول السلطة العثمانية بالجزائر وطريقتها في الحكم... .

- معطيات حول الإدارة المحلية... .

هذا إلى جانب مايمكن أن يستفاد من دراسة الخطاب المعتمد عند الكتاب المغاربة في حديثهم عن بلاد الجزائر تحت السلطة العثمانية... .

ب - كتب الرحلات :

إذا كانت هذه المصادر - كتب الحوليات - لاتقدم لنا مايسعد بالاطلاع على الحياة الاقتصادية والاجتماعية والفكرية، فإن مصادر أخرى - تهتم بالوصف أكثر من الرواية، وتجعل الباحث في التاريخ الاقتصادي والاجتماعي والفكري يجد مايرضيه، وهذه المصادر هي كتب الرحلات.

ومن أشهر كتب الرحلات المعاصرة لهذه الفترة والتي يأتي فيها ذكر بلاد المغرب الأقصى ثلاثة كتب يعرفها الباحثون الذين ينصب اهتمامهم على تاريخ الشمال الأفريقي خلال مرحلة بداية العصر الحديث.

- أولها كتاب «وصف إفريقيا» للحسن الوازن (ليون الأغربي).

وقد أبدى مجموعة من الملاحظات حول مستوى انتشار اللغة العربية والمعروفة الدينية . . . (ج ١ ، ص ٤٦٠). وإذا كان التامروقي قد زار قبر أبي زيد عبد الرحمن الشعالي ، فإن العيashi قد التقى بآبي مهدي عيسى الشعالي ، وسمع عن الشيخ أحاديث كثيرة ، ودارت بينهما مناقشات بخصوص مختلف القضايا العلمية والفقهية (ج ٢ ، ص ٢ إلى ٩).

ومنها يشير الانتباه من جهة أخرى أن العيashi تحدث في رحلته عن الزراعة والرعي وما كانت تنتجه أراضي المغرب الأوسط من حبوب وفواكه ، وهو بذلك يقدم للباحث لوحة أخرى عن تلك البلاد يمكن بمقرانتها بما جاء به كل من الوزان والتامروقي الوصول إلى نتائج مفيدة ، ربما فسرت لنا عدداً من القضايا السياسية والاقتصادية التي عرفها شمال إفريقيا في تلك الأزمنة.

وليس هذا وحسب إن العيashi يطلعنا على بعض المظاهر الاجتماعية قليلاً مانجد ذكرها في المصادر الأخرى ، فقد ذكر مثلاً ما كان يسببه الوباء من غلاء في الأسعار مما كان يغطّل معه التجارة في الأسواق . ففي حديثه عن الأغواط (ج ٢ ، ص ٤١٩) ذكر العيashi ما اتخذه أهلها من إجراءات خوفاً من تسرب الوباء إلى المدينة ، ذكر أهلهم فرروا من المسافرين من دخول المدينة ، وحتى عندما اضطروا إلى البيع والشراء فإن أهلها لم يكونوا يفتحون أبواب منازلهم بل كانوا يدخلون الزرع مثلاً من فوق السور ويأخذون الريال وينسلونه . . . وهذا الانكماش والانزواء - حسب العيashi كان سبباً في ارتفاع الأسعار بالمدينة .

وبالحديث عن أهل وقلة تحدّر الاشارة إلى ما يذكر صاحب «ماء الموائد» حول طريقة تمثيل التبادل التجاري مع الأعراب ، حيث إذا أرادوا الشراء من الأعراب الذين يأتون بمنتجاتهم فإنهم لا يشترون مباشرة بل هناك قوم من الأعراب الذين يسكنون بالمدينة وأطرافهم يلعبون دور الوسيط في عملية الشراء بين أهل المدينة وباقى

وقد انتبه التامروقي كذلك إلى جوانب أخرى من حياة سكانبلاد المغرب الأوسط حيث آثار في رحلته إلى زراعة القمح بناحية شرشال : « وقد كان القمح يكثر بشرشال إلى درجة أنها كانت تسمى « (ص ١٤ - ٦٩ - ٧٠) ، كما أشار إلى زراعة القطن قرب مستغانم (ص ٥٢) . . . وإلى الكميات الكبيرة من لحم البقر التي تتوفر بمدينة بونة إلى درجة أنها تصدرها إلى القسطنطينية ، (ص ٢٤) ، ثم إلى انتاج الآلات ومشتقاتها مما جعل السفن المارة بجوارها من وإلى تونس وجربة وسائر السواحل بشمال إفريقيا ، وكذلك السفن الآتية من جنودة قصد التجارة . . .

وعن الأسواق يذكر التامروقي عن الجزائر أنها أكثر تجارة وفضلاً وأنفذ أسواقاً وأجود سلعة ومتاعاً حتى أنها يسمونها استنبول الصغرى (ص ١٣٩) . لكن الواضح من كلام صاحب النزهة أن موانئ بلاد المغرب الأوسط كانت قد تأثرت كل التأثير باستيلاء الأتراك عليها ، حيث خربوها وأضعفوا تجاراتها . . .

- أما رحلة العيashi فتمكن أهميتها في أن صاحبها زار البلاد التي يتحدث عنها في رحلته ثلاثة مرات :

- الأولى في عام ١٦٤٩ وكان عمره لا يتجاوز اثنين وعشرين سنة ،
- الثانية في عام ١٦٥٣ وهو ابن السابعة والعشرين سنة ،
- الثالثة في عام ١٦٦١ وكان عمره خمسة وثلاثين سنة .

اهتم بكل ما شهدته من أحداث ومساير ، وسجل مناقشهاته مع العلماء والأشياخ يذكر مثلاً أنه التقى في تقرت بمحمد بن عبد الكريم التواقي (ج ٢ ، ص ٤٩ - ٥٠) ، وأنه اتصل في تفراوة بأحدى قراها (جمنة) بالفقيه محمد بن القاسم (ج ١ ، ص ٥٣) . وأنه زار عدة قبور للصالحين على الواجهة الصحراوية لبلاد المغرب الأوسط مثل قبر أبي الفضل بيسكرة (ج ٢ ، ص ٤١١) ، وعدة مساجد كان الصالحون يغترون فيها وينزلون مثل مسجد سيدي محمد الصالح يسكرة أيضاً وفالة (ج ٢ ، ص ٤٠٦) ،

واجة لم أراد استقصاء كل المعلومات التي تحتوي عليها. ونذكر على سبيل المثال لا الحصر عناوين بعضها فيما يلي :

- دوحة الناشر لابن عسکر الشفشاوني، ذكر فيه صاحبه تراجم علماء القرن العاشر الهجري.

- جدة الاقتباس (لابن القاضي)، وهو كتاب في جزئين اهتم فيه صاحبه بذكر تراجم الاعلام الذين عاشوا بفاس، اكثروا من اهلها أم كانوا من زارها،

- نشر المثان (محمد القادري) كتاب في ثلاثة أجزاء انصب فيه اهتمام صاحبه على اعلام القرنين العاشر والحادي عشر الهجري،

- ممتع الأسماء (محمد المهدى النحاسى) ذكر فيه صاحبه أشياخ الشاذلة الجزاوليين من أتباع الشيوخ الجزاولي والتلخ وماهـا من الأتباع (ق 10 و 11 هـ).

أما الكتاب الأول - الذي سنأخذه كنموذج لأبراز ماقدمه مثل تلك الكتب من معلومات تتعلق بالتاريخ السياسي والفكري لبلاد المغرب الأوسط خلال القرن العاشر الهجري ، فهو كتاب « دوحة الناشر » لصاحب ابن عسکر.

لقد جاء ابن عسکر بذكر عدد من أسماء العلماء الذين كانوا يتمتعون إلى المغرب الأوسط : منهم التلمسانيون ومنهم المليانيون والوهريانيون والقسطنطينيون لكن أغلب علماء بلاد الجزائر الذين ذكرهم ابن عسکر يتبعون إلى تلمسان ، بحكم الارتباطات الفكرية التي كانت تجمعها بمدينة فاس . . . ومنهم :

أحمد بن محمد العبادي التلمساني المتوفى بتلمسان عام 931 هـ .

الأعراب . . . وهذه ظاهرة يؤكدها كذلك العياشي عن هؤلاء السكان وهو يتحدث عن قضية من الأهمية بمكانتها وهي قضية كراء الدواب وتأمين القوافل . يذكر العياشي عادتهم في أكيرة الرواحل من القوافل الذاهبة إلى الأماكن المختلفة ، حيث يلحوذون إلى رجال يعرفهم أغلب الحمالين ، فمن احتياج إلى الكراء من أرباب الدواب وأرباب السلع التي اليهم فيعودون له الكراء مع صاحبه ويتكلفون بما قد يحدث من غدر من طرف الحمال . وسيأتي أحد هؤلاء « المخرج » حيث لا يمكن عقد كراء إلا بحضورهم ، وبمحضلون مقابل ذلك على « حلاوة » من كلا الطرفين .

ان ما يقدمه لنا العياشي في رحلته حول ظروف العيش في المغرب الأوسط أيام الاحتلال العثماني كثير ومتتنوع ، ونظن أن الاطلاع عليه والاستفادة منه واجب على باحث في تاريخ هذه البلاد خلال ذلك العصر .

صاحب « ماء الموائد » وكذلك صاحبا « وصف افريقيا » والنفحـة المسكـية يقدمون معطيات معينة للباحث في التاريخ الحضاري والاقتصادي من منظور معين كثيرا ما تكون الحاجة إليها لفهم ماقدمه كتب الحوليات التقليدية . . .

ج - كتب التراجم والوفيات والأنساب :

ثمة نوع آخرى من المصادر المغربية يستوجب استغلاله كذلك تكميلا لما جاء في كتب الحوليات - وكذلك كتب الرحلات ، وهذا النوع هو الخاص بالتراجم . حيث يقدم هذا النوع من المصادر المغربية وحيدا هائلاً أفرزه الانتاج المغربي خلال تلك الحقيقة (القرنين 16 و 17 م). وليس هذا مجال الاستعراض كل تلك الكتب التي تعد بالعشرات ، والتي تذكر بطريقة مباشرة وغير مباشرة معارفه بلاد المغرب الأوسط من أحداث فكرية واجتماعية وسياسية ، وهذا سنتصر فقط على ذكر عناوين بعضها ، على أن دراسة واسعة وعميقة لاستخلاص ماتذكره عن علماء وأشياخ بلاد الجزائر

ابن ملوكة وشكوا إليه ما نالهم منه وما تحوفوه فانقضى الشیخ انقباضاً عظیماً ثم ضرب الأرض بيده وقال : لارجع إلى تلمسان أبداً اعتناداً على الله تعالى فكان كما قال .
وقتل عروج التركاني ومن كان معه من الأعراج والتركمان . . . (ص 135).

- كتاب أحد بن يحيى الونشريسي «المعيار والمغرب».

- كتاب عبد العزيز بن الحسن الزبياني «الجوهر المختار».

ومن خلال هذه القراءة الأفقية الاجتزائية في كتاب الدوحة يمكن أن نتصور ما تحوّله مثل هذه المصادر المتعلقة بالعلماء والشيخوخة من معلومات فكرية وسياسية وحتى اجتماعية واقتصادية ، فهي تلقى أضواء على الحياة الفكرية من حيث أنها تقدم المناقشات التي كانت تدور بين العلماء وتعرف بأهميتها ، وبالتالي فهي تطلعنا على التيارات الفكرية التي كانت تحكم في تصرفاتهم وتحركاتهم : كانتشار المالكية كمذهب ، أو مدى استقطاب الطريقة الشاذلية الجازولية لرجالات العصر ، ومزاحة الطريقة القادرية لها . . . أو غير ذلك مما يمثل انشغالات مفكري المغرب في أواخر العصور الوسطى .

- كتب النوازل والفتاوی :

وهناك صنف آخر من المصادر انتجه علماء القرنين العاشر والحادي عشر المجرين ويتجلى في الكتابات الفقهية التي تعددت وتتنوع أغراضها . ومنها صنف جلب مندوقة غير بعيد اهتمام المؤرخين وهو كتب الفتاوی والنوازل . ومنها صنف اليوم عند الباحثين في التاريخ أن مثل هذه الكتب ، وإن كان استغلالها صعب ، فإن ما تحوّل عليه من معلومات تخص المجتمع والفكر والاقتصاد كثير ، ولا يمكن الاستعناء عنه إذا ما أراد المؤرخ أن يوقي بعلمه إلى مستوى يسمح له بفهم مكتنمات تاريخ البلد الذي يدرسه . . .

ومن أبرز كتب النوازل التي انجذبت خلال القرنين العاشر والحادي عشر للهجرة كتابين يعتبران من أغني الكتابات في هذا الصنف :

أولاً كتاب المعيار لصاحبـه أحد بن يحيى الونشريسي ، (وهو مثال آخر في الارتباط البشري والفكري بين بلدان المغرب حيث أن أصل صاحب المعيار يرجع إلى ونشريس من بلاد الجزائر . . .) ، وهو كتاب في ثلاثة عشر جزءاً جمع فيه صاحبه أشهر القضايا التي طرحت على علماء عصره (أو قبله) في الأندرس وإفريقيا والمغرب الأوسط والأقصى .

وقد أورد الونشريسي نوازل مختلفة من وهران وتلمسان وقسنطينة في مواضيع متعددة . ويمكن الاستفادة مما يقدمه صاحب المعيار في ميادين مختلفة من المعرفة : كملكية الأرض والبيع والشراء والأرض وكل القضايا المتعلقة بالمعاملات كما يقدم لقرائه معلومات حول مدى انتشار الإسلام ومواجهته للبدع والعادات ، ومدى قوة المذهب المالكي في الغرب الإسلامي بأسره . فقد قدم شهادات قد مانجدها في المصادر الأخرى عن موقف سكان بلاد المغرب الأوسط من فقدان الأندرس ومن الهجمة الإيبيرية على شمال إفريقيا . . . وبكل الراجح إلى نوازل الجهاد للوقوف على ذلك .

ثانياً : كتاب الجوهر لصاحبـه ابن فارس عبد العزيز الزبياني . يتعيـ هذا الأخير إلى أسرة تتـسبـ . حسب محمد العربي الفاسي صاحب مرآة المحسـن والدبيـ زيان أصحاب تلمسان ، ذلك الفرع الذي هاجر مع بداية القرن العاشر المـجري إلى المغرب واستقر بمـرفـعـات غـيـارـة . وقد جـعـ الزـيـاتـيـ في كتابـهـ هـذاـ يـقعـ فيـ جـزـئـينـ (محـطـرـيـنـ)ـ عـدـدـاـ كـبـيرـاـ منـ النـواـزلـ وـالـفـتوـانـ الـيـ عـرـضـتـ عـلـىـ عـلـمـاءـ المـغارـبـ خـالـلـ الـقـرـنـ الـحادـيـ عـشـرـ للـهـجـرـةـ . وهيـ مـتـوـعـةـ وـتـبـيـنـ كـذـلـكـ المشـاـكـلـ الـيـومـيـةـ الـتـيـ كـانـتـ تـوـاجـهـهـاـ بـلـادـ المـغـرـبـ الـأـوـسـطـ ،ـ وـخـاصـةـ المشـاـكـلـ الـتـيـ خـلـقـهـاـ هـاـ التـدـخـلـ الـأـجـنبـيـ الـمـسـيـحـيـ الـإـسـبـانـيـ . . .

أ/شاوش حباسي

أصول العلم الوطني الجزائري المعاصر تطوره الشكلي وتحليل مضمونه (الايديولوجي والسياسي) الوطني (1518 - 1945)

مقدمة : كثيراً ما استوقفني العلم الجزائري بالوانه وأشكاله منذ صغر سني وعند السؤال عن مغزى الوانه وأشكاله ومصدره كانت الإجابات متعددة متناقضة وغير مؤسسة بالخصوص على مصادر وبرامج تجعلني أطمئن إليها. لذلك بقي تعطشى واستفهاماتي دائمهين عن معرفة مصدر العلم الوطني وفك رموزه . فمن هذا الاهتمام القديم المتجدد أضع اليوم أمام القارئ المهم دراسة في الموضوع منذ العصور الحديثة إلى سنة 1945.

ولا أزعم أنني قلت الموضوع بحثاً، لكنني تتبع أثار هذا العلم قدر المستطاع منذ القرن السادس عشر فانتهيت إلى التالية : وهي أعلم الجزائري في العهد العثماني كان مصدره مركز الدولة العثمانية وإن تعدد التعديلات في الأشكال المرسمة عليه، وفي تغيير اللون كلية مع الرسم تارة كما فعل رياض البحر في نهاية القرن السادس عشر.

أما بعد سقوط مدينة الجزائر في يد الفرنسيين وغياب السلطة المركزية الجزائرية ثم سقوط مدينة وهران فقد تبعت أعلام الفعالين السياسيين - العسكريين اللذين برزوا على الساحة الجزائرية وأقصد الحاج أحمد باي والأمير عبد القادر،

وعلى العموم فإن غنى مثل هذه المصادر لم يعد يطرح للنقاش، كل ما يمكن إثارة الانتباه إليه هو الحاجة إلى التسلح بمنهج رهن ينطلق من الرغبة في البحث ليس فقط عن المعلومات المباشرة التي تقدمها مثل هذه النصوص ، ولكن عن كل ما يمكن أن يستغل ويؤول من معطيات وموافق لاتفهم إلا بربطها بإشكاليات جديدة وبووضعها في سياق تاريخ المدى الطويل ()

خلاصة القول أن ما ينتظر الباحث في تاريخ الجزائر - كما هو الحال بالنسبة للباحث في تاريخ أي بلد عربي آخر - هو أن يشعر على ساعد الجد ليتحم دور الوثائق والمخزنات المغربية ليفق على مصادر ساعدته في فهم عnde من معطيات تاريخ الجزائر.

وما قمنا به هنا لا يمكن أن يعتبر مسحاً كاملاً ونهائياً لما يتوفّر في الخزانات المغربية (أو الأجنبية) من مصادر تتعلق بتاريخ الجزائر، بل هي فقط محاولة لاثارة الانتباه إلى وفرة وتنوع تلك المصادر وغناها انطلاقاً من نواخذ معينة... . وماهذا إلا دليل - إن كنا لازلنا في حاجة إلى دليل - على أن بلدان المغرب كان لها تاريخ مشترك ومتكملاً، ولا يمكن فهم هذا دون الرجوع ذلك.